الشخصيات

يقول سومرت موم :

" إن الكاتب لا ينسخ نماذجه نسخاً من الحياة ، ولكنه يقتبس منها ما هو بحاجة إليه . يضع ملامح استرعت انتباهه هنا . أو لفتة ذهنية أثارت خياله هناك . ومن ثم يأخذ فى تشكيل شخصيته ، ولا يعنيه أن تكون صورة طبق الأصل ، بل ما يعينه حقاً ، هو أن يخلق وحدة منسجمة ، محتملة الوجود ، تتفق وأغراضه الخاصة(١) .

ونجيب الكيلانى يصنع شخصياته من الواقع المحيط بنا والمألوف لدينا ..إنها نماذج نقابلها ، بل نعاشرها أو نتعايش معها فى كثير من الأحيان ، ولكنه يشكلها بذكاء ، ويختارها بوعى لتحقق الوحدة المنسجمة ، المحتملة الوجود (أو المتحققة الوجود بالفعل)كما يقول" سومرست موم " .

وشخصيات الكيلانى فى رواياته التى بين أيدينا ، تزخر بالحياة فى مجموعها ، صحيح أن بعضها يندرج تحت ما يسمى الشخصيات الجاهزة ، أو المسطحة ، ولكننا نعثر على شخصية رئيسة على الأقل فى كل رواية تقدم لنا معالمها من الداخل والخارج ، فى حياتها الخاصة والعامة ، بحيث نراها بلا رتوش ولا أصباغ ، تتفاعل مع الحياة فى حال قوتها وحال ضعفها .. إنها شخصية بشرية بكل ما يعترى الشخصية البشرية من تقلبات وتغيرات ، ومد وجزر .. ليست شخصية " السوبر مان " على كل حال ، وإنما شخصية الإنسان العادى الذى يفرح ويحزن ، ويبتهج ويكتئب يقوى إيمانه على مر الأيام ، ويهتز هذا الإيمان فى لحظات الضعف والتعب ، وإن كان يعود لإيمانه أقوى من ذى قبل .

١ - محمد يوسف نجم ، فن القصة ، ٩٣.

ويمكننا أن نعثر على عدد من الشخصيات فى روايات نجيب الكيلانى ذات ألوان متعددة ومشارب شتى .. رجالاً ونساءً وأطفالاً ..من الصالحين والطالحين .. والإيجابيين والسلبيين ..والأخيار والأشرار ، وسوف نحاول أن نركز الضوء على أهم هذه الشخصيات وملامحها ، من خلال تصنيفها إلى مجموعات متشابهة فى السلوك والقيم والأدوار ، لنكشف أهم هذه الشخصيات وملامحها ،ومدى اتساقها مع الأداء الروائى، و انسجامها فى التعبير عن رؤية الكاتب .

المجموعة الأولى (الشخصيات النقية) :

تبدو شخصية عبد المتجلى ،من أقوى الشخصيات الحية التى رسمها الكاتب ، ولعل ذلك يرجع إلى معايشته لها على امتداد روايتين (اعترافات عبد المتجلى ، امرأة عبد المتجلى) ، حيث أطلعنا الكاتب على حقيقتها من الداخل ، وأرانا كيف تفكر ، وكيف تستجيب للأحداث وتتفاعل معها سلباً أو إيجاباً ، وعرّفنا معالم تكوينها الثقافى والاجتماعى ، وكيف أثر هذا التكوين على توجيهاتها وانفعالاتها وآمالها وأحلامها .وطموحاتها ..ومن ثم ؛ كانت غزارة المادة الإنسانية الحية التى طالعتنا على امتداد الروايتين دون أن نشعر بملل أو سأم ، بل كنا فى غاية اللهفة لمتابعة هذه المادة لنعرف إلى أى مدى ستصل ، وإلى أى مدى ستقاوم هذا العالم المضطرم الذى تعيش فيه ، وتصطلى بعذاباته وعنائه .

إن عبد المتجلى شاب من غمار الشباب الكثيرين الذين يسمونهم " بَطَالَة مقّنعة " فهو يعمل بمجلس القرية الموجود فى بلدته " كفر أبوسالم " وليس له غرفة أو مكتب أو كرسى يجلس عليه (حالة عامة فى مجالس القرى بالدولة كلها) كما لا يعرف توصيفاً لوظيفته ، أو ماذا تسمى ؟ يحمل شهادة متوسطة (دبلوم ثانوى صناعى قسم برادة

ولحام)ولكنه يعمل أحياناً فى الأعمال الكتابية بالمجلس ، ومنذ سنتين لم يدعه أحد لعمل شيء .وهو حريص على أن يدقق فيما يعمله ، مما جعل رئيس المجلس يضيق به ، وفضل ألا يستعين به فى شيء ، ولا يطالبه إلا بالتوقيع فى دفتر الحضور والانصراف !.

يجسد عبد المتجلى مأساة الشباب من زملائه ، فهم لا يعملون عملاً مجدياً ، ويقبضون رواتبهم دون مقابل ، ويعانون من البطالة المقنعة .وليس عبد المتجلى وحده فى هذه الحال ، بل هنالك مئة وخمسة موظفين مِثْلُهُ فى المجلس لا يعملون شيئاً. أما الذين يؤدون عملاً حقيقياً فإنهم يعدون على أصابع اليد الواحدة .

وفوق ذلك ،فإن شخصية عبد المتجلى تجسد مأساة جيل بأكمله ، ووطنٍ بأكمله وتفكير يتجاوز المألوف ، ويكشف عن الفساد السائد ، وإن كانت تستغرقه أحياناً القضايا الثانوية الهامشية ، ويهمل القضايا الكبرى الرئيسية ، فهو يهتم بالرشوة فى وزارة الصناعة التى نشرت عنها الصحف ، أكثر من اهتمامه بنقص مياه النيل التى تهدد المستقبل الزراعى فى القرية ، ولكنه يرى أن حلّ التناقضات لا يتم إلا بالبحث عن الجذور وتعمق الأسباب ، ولعل ذلك يرجع إلى كونه مثقفاً وقارئاً يُدمِن القراءة ، ويسعى أن يكون التقدم المادى قائماً فى بلده "كمبيوتر لكل مواطن " ، وحين يقول له الحاج تهامى : "الرغيف أولاً" يرد عليه :

" هذه مقولة ساقطة .. نرددها دائما ، فالرغيف موجود ، والله لن يحرمنا من الحد الأدنى لحياتنا الحيوانية ..والكمبيوتر لن يمدنا بالأرقام والمعلومات فحسب ، ولكنه سيثمر خبزاً ، وفاكهة ، وشيكولاته أيضاً " (١).

١ - اعترافات عبد المتجلى ،٢٤.

وتبدو شخصية عبد المتجلى مثالية فى تصوراتها ، حالمة فى طموحاتها ، وإن كان الواقع المرير يشدّه بعنف ويوقظه من أحلامه وتصوراته :

يقول عبد المتجلى الذى لم تتح له فرصة التعليم فى معاهد الأزهر :

-" أموالنا حرام .. طعامنا حرام ..حياتنا نجاسة .."أطلقوا عليه بالأمس " عبد المتجلى " المجذوب ! (١).

تبدو من هذا المنطلق مثاليته المطلقة ، ورفضه الكامل للواقع ، ومن ثم جاءت فكرة بحثه عن " الونش " كأنها جاءت أو صدرت عن مجنون ، لا يعرف اليأس بسهولة ، بالرغم من تحالفه مع الفشل ألف مرة ، فأصبح حليف النكسات والهزائم .. وإن كان يمكن القول : إنه رمز للصمود والتصدى ، فهو يتصدى للعمدة الذى يفرض إتاوات على الفلاحين ، ولكنه ينهزم أمامه ، كما تعرض لمساءلات قانونية كادت تؤدى به إلى السجن عندما عجز عن إثبات وجود اختلاسات فى ميزانية المجلس ، أيضاً أو سعوه ضرباً على قدميه بالفلقة فى المركز عند تصديه للإدارة المماثلة لتجريف الأرض الزراعية فى كفر سالم ..ولكنها المرة الوحيدة التى نجح فيها مما أجبر تجار الطين والتجريف إلى الانتقال إلى قرى مجاورة .

إن الواقع المرير والإحباطات العديدة التى يعانيها تجنح به فى كثير من الأحيان إلى نوبات من اليأس والحزن ، كما تتزعزع لديه قصور القيم والأحلام التى يبنيها فى خياله حتى توشك على الانهيار ..ولكنها تقاوم فى استماتة حرصاً على الحلم والحرية .

ويتذكر عبد المتجلى أن أعداء الشعب الحقيقيين هم اللصوص والمستغلون وحملة السياط . والحرية والعدالة والعلم والعمل أساس الخروج من المأزق . وهى قضايا يؤمن بها أى إنسان طبيعى حرّ على وجه الأرض . (٢).

---

١ - السابق .٩.

٢ - امرأة عبد المتجلى ، ١١٢، وما بعدها .

إن الضعف الإنسانى من خصائص شخصية عبد المتجلى المحورية ، فهو ليس (السوبر مان)الذى لا ينهزم والذى لا يخطىء ولكنه يتعرض لكثير من الهزائم والأخطاء ومع ذلك يواجهها بصبر وإرادة ..يتألم ويأسى لكن الإصرار ينسيه الألم والأسى وبالرغم من كل شىء ، يحلم ويواصل الحلم ، ولا شك أن التصور الإسلامى كان من وراء صموده .

".. كان يتأرجح بين الشك واليقين ، بين المثالية التى يحلم بها ، والواقعية التى تهيمن على السوق ، كان عبد المتجلى يتمنى أن يوجد فى هذا العصر كعثمان بن عفان يتبرع بحمولة ألف بعير للجائعين والمحتاجين كما حدث فى التاريخ ، لكن العصر ليس عصر الصحابة ، ولكنه عصر الذئاب الجائعة التى تنهش لحوم الأحياء والأموات على حد سواء ..." (١).

وبعد ذلك وقبله ، فإن " عبد المتجلى " إنسان عادى مثل بقية الناس ، يتزوج وينجب ويختلف مع زوجته ويصل الخلاف إلى حدّ الطلاق ثم المصالحة ،ويجد فى حياة الرضاء متعة تختلف عن قسوة حياة الفقر ، ويحمل هموم أمه ، ويسعى لتزويج أخته ..إن عبد المتجلى نموذج حىّ للشخصية الروائية المتنامية التى تحمل نبض الإنسان ومشاعره وأشواقه فى الحرية والعدل والتقدم والطهارة .

على العكس من شخصية " عبد المتجلى " نجد شخصية الشيخ " محمد أحمد حسب الله "فى رواية " ملكة العنب " فهو شخصية جاهزة إلى حدٍ ما ، لم يتوغل المؤلف فى أعماقها ، وإن كان قد قدمه إلينا شاباً مستقيماً يواجه الواقع بصلابة وإرادة ..صحيح أننا نعثر على بعض المواقف التى يكشف فيها المؤلف عن داخل الشيخ محمد مثل رغبته فى الزواج من " براعم " ولكنه يجعل منه شخصية مثالية قد تتأبى على الألم فى مواقف الألم

١ - السابق ١٠١.

مثلما رأيناه عند تعذيبه من قبل الجلادين فإنه يغالب الآه والصراخ ، بل إننا نراه يجرى على ساقه أو قدمه الموجوعة منذ زمان ، وكأن التعذيب منحة لا محنة .

والشيخ محمد يمثل صورة عالم الدين المثالى ، فمع أنه شاب فى الثلاثين ، أسمر وسيم ، فإنه لا يرفع عينيه عن الأرض إلا بقدر الضرورة .يطلقون عليه " الرجل الصالح " .وهو عدو لدود للكذب والنفاق والظلم والتعالم .مهنته الأصلية التدريس ، ولكنه يصلى بالناس ويخطب الجمعة . كافح بعد وفاة والده الفقير حتى حصل على الشهادة العالية .. ومن منطلق وعيه الإسلامى يثير فى خطبته قضية " زكاة العنب " الذى يزرعه الفلاحون بدلاً من الحبوب ، فيسود اللغط والجدل ، حول مشروعية هذه الزكاة فيندفع بعض الفقراء إلى القول :

"- إذا لم نأخذ حقنا بالشرع ، فسوف نأخذه بالقوة " (١).

ولا يأبه الشيخ " محمد حسب الله " بتهديدات أصحاب العنب ممثلين فى " براعم "أو ملكة العنب التى تواجهه بالغضب والحنق والاتهام بإثارة الفتنة ، فيرد عليها واثقاً "-إن عالم الدين لا يأخذ إذناً من أحد حينما يريد أن يقول الحق ولوكان مراً "(٢).ثم يفهمها الشيخ محمد أن المنبر " ليس بوقاً من أبواق الحكومة ، ولكنه مكان طاهر تنطلق منه كلمات الله"(٣).

إنّ الإرادة الصلبة التى تتميز بها شخصية الشيخ محمد حسب الله ، كانت وراء الكثير من المتاعب التى جرّها على نفسه وقريته منذ فجرّ قضية زكاة العنب حتى وقوعه تحت سياط الجلادين ، مروراً بوقوفه وحده بجوار جثة قريبه الذى قتله العراقيون ، عند

١ - ملكة العنب ٦/٥
٢ - السابق ،٩.
٣ - السابق ١٠.

تشييع جنازته ، وبعد تدخل قوات الأمن لتفريق المشيعين !.ولعل هذا الموقف المثالى الذى وقفه الشيخ محمد حسب الله ، دون أن نرى أعماقه الوجدانية وأطواره النفسية ، يعود إلى طبيعة عمله إماماً وخطيباً ، ولعل المؤلف أراد أن يجنب " عالم الدين " الذى يمثله الشيخ محمد حالات الضعف الإنسانى التى تعترى غيره من الناس فجاء على تلك الصورة المضيئة المشعة ، حتى فى حالات القهر والقمع .

وهناك شخصية قريبة من شخصية الشيخ محمد ، تبدو أكثر بساطة وأقوى تأثيراً وهى شخصية " أبو المجد شاهين " ذلك الفلاح الشيخ ،الذى يتصف بالزهد والورع ، ويتعامل مع الأحداث ببساطة ويسر ، وإن كان ينحاز دائماً للإسلام وما يمثله من حق وعدل وطهارة ، وهو يمثل صورة الفلاح المسلم فى غير غلو أو تنطع ، مما يمكن أن نعدّه رمزاً للدعوة الخالصة إلى تطبيق الشريعة ، والعودة إلى روح الإسلام ، فهو يرى أن عدم احترام الشرع وضعف الإيمان وراء استباحة كل شىء : السرقة ، الزنا ، القتل ، شهادة الزور ، الرشوة ..... (١) .

ومع بساطة أبو المجد شاهين ، وطيبته الفطرية ، فإنه يقاوم بإيمانه وصبره سياط الجلادين ، بل إن وعيه يتجاوز الحاضر إلى المستقبل يؤثر فى جلاديه الذين يكفون عن تعذيبه ، ويعملون على إخراجه من الحبس ، بعد أن أثر عليهم بأقواله وتصرفاته !!.

إنّ شخصية " أبو المجد " تبدو أقرب إلى المثالية ، ولكن بساطتها وعفويتها فى التعامل ، وتأثيرها الفطرى على الناس ،يجعلها حيّة وفاعلة ، بل تحفر لنفسها مكاناً فى ذاكرة من يقرأ الرواية .

---

١ - نفسه ٢٧.

أيضاً ، هناك شخصية الطالب الشاب " شعبان عبد اللطيف "وهو أزهرى من طلاب أصول الدين ويعمل على نشر الدين الصحيح ، ويأخذ مواقف واضحة من الفساد والواقع الاجتماعى . ويعلن رأيه فى الأحداث والأشخاص ، مثل رأيه فى اللواء الشربجى زوج " عنايات هانم "

إن اللواء الشوربجى باشا رجل فاسد فاسق ، وإنه كان على علاقة مع يهودية كما كان على صلة وثيقة بالانكليز ، وقدم لهم الكثير من المعلومات عن حركة المقاومة.." (١).

و"شعبان عبد اللطيف " مثله مثل كثير من الشباب المرتبط بالدين ارتباطاً وثيقاً ويتوق إلى تطبيق الشريعة والدفاع عنها ، ويضحى فى سبيلها إلى آخر مدى .. ولكنه مرسوم فنياً من الخارج ، ولعل ذلك يرجع إلى كونه شخصية ثانوية .

وإذا عددنا الشخصيات السابقة نماذج للتدين الإيجابى – أو الحركة الاجتماعية وفق وعى ناضج بالإسلام وتصوراته ، مع تفاوت فى بنائها الفنى ونوعيتها ؛ فإن هناك نماذج لما يمكن أن نسميه بالتدين السلبى أو الزهد الذى يعتزل الحياة والواقع وإن كان يحتفظ فى قرارة أعماقه بنقاء السريرة وصفاء الفطرة ،وقد يصنع منه الكاتب رمزاً للنجاة أو يجرى على لسانه ما يعد طريقاً للنجاة .. ويلجأ إليه بطل الرواية ليجد عنده حلاً ينقذه من الحيرة والتخبط ، كما نرى عند شيخ الخلوة فى مسجد السيدة زينب الذى يلجأ إليه عبد المتجلى كلما ادلهمت أمامه الدنيا :

– " أين أتجه ؟.

– وهل هناك سواه؟.

---

١ - امرأة عبد المتجلى ،٥٠.

وهكذا يمضى الحوار الذى يعيد عبد المتجلى إلى صوابه ، حيث يذكره بالعودة إلى الأم – ولعلها مصر ، أو هى كذلك بالتأكيد – ويشير إليها بقوله :" فى أحضانها الحب والزرع الأخضر والأمن والسلام "(١).

أو يذكره بتلك العبارة :" ليس فى بلادنا من يموت جوعاً "(٢).

وإذا كان شيخ الخلوة ، الذى يتسم بالمهابة والنورانية والصفاء ، لا تظهر من ملامحه وصفاته ومعالمه فى المعترك الإجتماعى اليومى أية آثار أو انفعالات ، فإن أهل التدين السلبى تظهر مواقفهم جليّة من المجتمع... فالدراويش فى أذكارهم ومدائحهم يستمعون لشيخهم المداح ، وهو يشرح لهم معنى قوله تعالى :-

(عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ)(٣)

ويتلخّص فى الذكر ، والجد فى تحصيل الرزق ، ورعاية العيال ، والإحسان إلى الجار ، وعدم الانشغال بأمور السياسة ومشاغل الدنيا التى يزينها الشيطان (٤).

وعندما تتوارد أنباء الفضيحة الخاصة باللواء الشريجى وزوجته الشابة ، ينزعج الشيخ المداح انزعاجاً شديداً ، لأن ما يجرى ببساطة شديدة صرف الناس عن ذكر الله .إنه ضرب من اللهو فى رأيه ، ويكاد يصرفهم عن تحصيل الرزق ، ورعاية أسرهم ، وكان الذى يضايقه أكثر أن رواد المساجد فى القرية لا يكفون عن الحديث فى أمر الفضيحة (٥).

إذاً فالشيخ المداح لا يريد تجاوز الاهتمام بالذكر والرزق ، وهو ما يعنى أن يعيش الناس بعيداً عما يجرى سواء كان له علاقة بواقعهم ومستقبلهم أو لم تكن له علاقة ، مما

---

١ - قضية أبو الفتوح الشرقاوى ، ٣٠.
٢ - السابق ، ٥٤.
٣ - سورة المائدة ، من الآية ١٠٥.
٤ - قضية أبو الفتوح الشرقاوى ، ٣٩.
٥ - السابق ٨٨.

ايعنى أن الإسلام من وجهة نظره قاصر على العبارات فحسب ..وبالرغم من هذا المفهوم القاصر ،فإن للرجل حضوراً وتأثيراً على أفئدة الناس ، فقد كانت وفاته بالأراضى المقدسة ودفنه بالبقيع ، ذات صدى عميق فى نفوس أهل القرية ، وقد وصفوه بأنه " الصوت الصادق فى قريتنا ".(١)

ولعل هذه السلبية تجد تعليلاً معقولاً إذا استمعنا لمقولته التى وردت على لسانه قبل سفره إلى الحج حين رأى المجتمع والعصر لا يمثلان ما يبغى أو ما يريده الإسلام :

" هذا عصر الضلال ..وبنوه ضالون ومضلون ..لم يعد أحد يعرف الصدق من الكذب.. ولا الوهم من الحقيقة ..إنهم يصنعون المواقف .. وكل شىء على هواهم والناس ضائعون (٢).

وإذا كان انحراف الناس تعليلاً معقولاً للانسحاب من الواقع ، فإنه من ناحية أخرى يحتم على العلماء والشيوخ أن يقوموا بدورهم فى الاصلاح والتصدى للأمراض الاجتماعية ..ولكن نمط الشخصية السلبية موجودة وقائمة فى المجتمع .. وكأن الكاتب أراد أن يقول لقرائه : هاكم النمط السلبى فى مقابل النمط الإيجابى ..فوازنوا واختاروا .

ثمة شخصية يمكن إلحاقها بشخصيات هذه المجموعة ،إنها شخصية متحولة انتقلت من عالم الضياع والضلال ، وكانت ضحية لقهرٍ لم تتوقعه ، إلى عالم السكينة والسلام والهدى .. إنها شخصية " أبو الفتوح الشرقاوى " الذى حملت الرواية اسمه ..فقد كان لصاً يهوى الكذب ، وبدأ يجلب على نفسه المتاعب بادعائه أنه رأى جثة القتيلة المزعومة " عنايات هانم " زوجة اللواء الشربجى ، وتطور هذا الادعاء على يد الشرطة نتيجة

١ - قضية أبو الفتوح الشرقاوى ١١٤.
٢ - السابق ٨٨.

للتعذيب إلى اعتراف تفصيلى كاذب بأنه هو الذى خنق عنايات البحيرى ، وتقاضى مقابل ذلك مئة جنيه عداً ونقداً (١).

ولكنه لا يعرف أين ذهبوا بالجثة ولا الأشخاص الذين كلفوه بالمهمة ودفعوا له الثمن ، ثم تتطور المسألة إلى ملابسات يدفع أبو الفتوح ثمناً لها معاناة وتعذيباً إلى أن تتحول إلى قضية عامة تشغل المجتمع كله ؛ الدولة ، والأحزاب ، والصحافة ، وعامة الناس وخاصة بعد الإفراج عنه حيث تبدأ حياته فى التحول ،والانتقال إلى التدين والتزام الطريق المستقيم سلوكاً وأخلاقاً .

بيد أننا نكتشف على مدى الرواية تعليلاً لإدمانه الكذب سبب مصائبه ومشكلاته؛ وهو المعاملة السيئة من جانب زوج أبيه وهو صغير ، فقد ضرباً مبرحاً بسبب قطعة لحم فلم يجد مخرجاً إلا الزعم بأن القطة هى التى أكلتها ، وسارعلى هذا المنوال فى أشياء أخرى ..ومن وجهة نظره ، فإن الكذب سمة عامة للمجتمع ..البضائع كلها مسعّرة ولكن أحداً لا يطبق التسعيرة ولا يبيع بها ، وأكبر سلعة اليوم هى الكلام فى الجرائد والإذاعة ولدى المحامى ، والمدرس ، والمؤلف ، والوزير ، والعمدة ، وشيخ الخفر والكتاب .. كلهم كذابون والناس فى بلدنا يستمتعون بالكذب ويرفهون عن أنفسهم ..والحكومة تريد الكذب حسب مصلحتها ، وأنا طول عمرى ثرثار ..أعنى كذاب .. وقد أخذت جزائى ، ليس فى حياتى قصة لها قيمة ..لم أكن قاتلاً مأجوراً ..ولا عمدة ولا شيخ خفر..ولا .." (٢).

ومع أن " أبو الفتوح " كذاب ولص ، فإن وعيه السياسى كما رسمه الكاتب يبدو أكبر من مستواه الثقافى ووضعه الاجتماعى فهو يفكر داخل السجن للخروج من محنته ، فى السفر

١ - مئة جنيه فى ذلك الزمان تساوى مبلغاً هائلاً فى زماننا ، وكان من الممكن أن تكون ثمناً لعدة أفدنة ، أى ما يساوى عشرات الألوف بسعر اليوم .
٢ - قضية أبو الفتوح الشرقاوى ، ٩١.

إلى القاهرة والدخول إلى قصر الملك خفية عن طريق الحديقة لكنه وجد أن مقابلة " النحاس " باشا ، زعيم حزب الوفد أيسر ، لم يكن يحب الوفد ، وكان يكره أحمد ماهر باشاً وحزب السعديين -والكراهية غير معروفة السبب - لكنه بالنسبة للإخوان المسلمين ، فكان يرى أنهم أسمى وأنقى من أن يلوث مجالسهم بأنفاس التبغ والحشيش التى ينفثها من آن لآخر كان يخاف أن يشموا رائحته ، وهو يهابهم ويحترمهم ، لأنهم على حدّ تعبيره (من أهل الله) وعندما يتفضل الله عليه بالتوبة " فسوف يترك الجميع ويذهب إليهم نقياً نظيفاً "(١)

ولعل وعى " أبو الفتوح " السياسى الناضج الذى صوّره الكاتب ، يجد له مسوغاً إذا عرفنا أن تلك الفترة التى جرت فيها أحداث الرواية ، كانت تتميز بالنضج السياسى بصفة عامة ، وكانت حافلة بالصراع الحزبى والوطنى ، وكان وجود الاستعمار الانجليزى يُشعل هذا الصراع ويؤججه ، لدرجة أن يصل صداه إلى كل بقعة وكل بيت فى الوطن ..

ولاشك أن جمعية الإخوان المسلمين كان لها آنئذ حضور قوى فى وجدان الكثيرين وبخاصة فى القرى والأرياف ، نظراً لطبيعة دعوتها ، وما تقدمه من خدمات ، ويُعزى تحول " أبو الفتوح " بعد خروجه من السجن ، وانضمامه إلى الجمعية ، إلى ما قدمته له من مساعدة (إخفائه عن المطاردين له ، وتوكيل محامٍ كبير للدفاع عنه) بوساطة الطالب شعبان عبد اللطيف الذى سبقت الإشارة إليه (٢).

لقد صار " أبو الفتوح الشرقاوى " رجلاً صالحاً بعد أن تخلى عن الكذب واللصوصية ويحمل عبء الدفاع عن هوية الأمة وحريتها وكرامتها أو على الأقل ينشد الخير لنفسه ، والسلام مع النفس والمجتمع .

---

١ - قضية أبو الفتوح الشرقاوى ، ٢٠

٢ - انظر صفحة ٥٧ من هذا البحث .

المجموعة الثانية (شخصيات نسائية)

وتعدّ هذه المجموعة امتداداً للمجموعة الأولى ، وإن كانت تشمل معظم الشخصيات النسائية فى الروايات الأربع ، وهى شخصيات فاعلة ونشطة وإيجابية بدرجات متفاوتة ، وتبرز بصورة ما دور المرأة بوصفها مؤثراً فى الأحداث والشخوص..والجديد هنا أن الكاتب يجعل المرأة ذات حضور اقتصادى واجتماعى ويتضح ذلك من شخصية " أم صابرين " امرأة عبد المتجلى ، و"براعم "ملكة العنب وكلتا المرأتين تواجه المجتمع تاجرة أو زارعة وتحقق وجوداً فعالاً يؤثر فى الآخرين سواء باستخدامهم أو التفضل عليهم أو إفادة جموع الناس بإقامة المشروعات أو الإسهام القوى فيها .

وتبدو شخصية " أم صابرين " أكثر غنىً فنياً ، وثراءً روائياً ، بحكم ما شهدته من أحداث وما خاضته من أزمات ، كشفت عن طبيعة فكرها وملامح شعورها .

لقد تعرف عليها " عبد المتجلى " فى الميدان الذى سرق منه " الونش " . وهى ممتلئة عليها مسحة من وسامة ، يبدو أنها فى العقد الرابع من عمرها ، تقف فى" كشك"صغير فى طرف الميدان ، تبيع السجائر والبسكويت والحلوى ..وقد اشترى منها " عبد المتجلى " زجاجة " كوكا كولا "، ودار بينهما حوار خشن :

-من أى داهية أتيت ؟ .

- الغربيّة

- تعنى فلاح .

- لماذا التجريح ؟ .

- أحب الصراحة .. هل تضايقت ؟.

- أعرف أنك تمزحين ..." (١).

ومن ثم تبدأ علاقة تنتهى بالزواج والإنجاب والمشاركة فى مسار حياة ..وتخبرنا الرواية أن المرأة لها طفلة يتيمة اسمها صابرين ، عمرها ثلاث سنوات ، مات أبوها فى حادث طريق وهو يدفع عربة يد ممتلئة بالخضراوات كان يتكسب منها .

وبعد ذهابها مع عبد المتجلى إلى" كفر أبو سالم "تُحدِث انقلاباً خطيراً فى حياته حيث تقوم بالإعداد لمشروع تجارى ، وتقنع زوجها بطريقة عملية ليقبل المشروع ، وتسوّق تجارتها فى البداية منزلياً ، وتكشف عن وجهها " البراجماتى " العملى الذى يتعاكس مع توجه عبد المتجلى " المثالى " :

- إنك تضيعنا أمام الأمر الواقع .
- قالت باسمة :
- إن مرتبك لا يكفى لإطعام البقرة والحمار.

أدرك أنها على حق ، فقال :

- ثم ماذا بعد ذلك ؟.
- بقى أن نعلن عن افتتاح المحل ...ضحك وقال :
- ونطلق عليه " سوبر ماركت " أم صابرين !
- ولم لا ؟ أنت موظف ولا يحق لك التجارة (٢).

وبحكم خبرتها أو حسّها التجارى تنمو تجارتها وتتوسع ، وتتعامل مع الناس بطريقة حسنة وتكسبهم إلى جانبها ، مع التزامها بصورة المرأة المسلمة المحافظة وقد جعلها تعاطفها مع الناس ومساعدتها للفقراء " ولية من أولياء الله الصالحين "، كما

---

١ - اعترافات عبد المتجلى ، ٣٧.
٢ - امرأة عبد المتجلى ، ٧.

كانوا يشيرون إليها فقد منحتهم القروض والمساعدات وجاملتهم فى المناسبات وشاركتهم فى البهائم وماكينات الرى والزراعة وأسهمت فى ترميم المساجد والمدارس ، ورصدت حافلة للنقل من القرية إلى المدينة والقرى المجاورة وبنت مقابر للصدقة ورصدت جوائز للمتفوقين فى المدارس وحفظ القرآن الكريم وقدمت معونات لأصحاب الكتاتيب....إلخ .

وفى مقابل هذا الوجه المشرق ، فإنها استطاعت السيطرة على أصحاب القرار فى القرية والمدينة عن طريق ما تقدمه من إكراميات وهدايا أو ما يسمى " رشاوى " مقنعة وهو ما أثار قلق زوجها عبد المتجلى ، وأدى إلى مضاعفات غير حميدة فى العلاقة بين الزوجين ، لأنها من ناحية تصّر على منهجها الذى يرى الدنيا سوقاً ينبغى أن تتعامل معه بلغة السوق ومن ناحية أخرى فإن عبد المتجلى يرى المسائل بصورة أخرى تتناقص مع رؤية زوجته :

" العمدة أصبحت رقبته فى يدى ، وضابط النقطة رهن إشارة منى ورئيسكم فى المجلس القروى كالكلب الذى يقنع بالعظمة بشرط أن يكون فيها بقايا...

هزّ رأسه كأنه ينفض عنه آثار نوم ثقيل :

- هل أصابك الجنون ، أم أنك تحلمين ؟.
- العالم كله سوق يا عبد المتجلى " (١).

ولا شك أن هذا التناقض بين الزوجين كان سبباً فى تدهور العلاقات بينهما ، مما أدى إلى الطلاق صحيح أنه جرت محاولات للصلح بينهما ، وقد تم بالفعل ، ولكن اعتراضات عبد المتجلى انصبت على منهجها وتطور حياتها ، فهو يرى المشكلة الرئيسية فى تجمع خيوط السلطة فى يدها ، الإدارة خاضعة لها وأهل القرية يطيعونها بسبب قوتها

١ -امرأة عبد المتجلى ،٣٢.

الاقتصادية وبراعة مسلكها وهنا مكمن الخطر، لأنها فرد واحد ولا يوجد ضمان من أن تتحول بين يوم وليلة إلى ديكتاتور، فيخضع الجميع لحكم الفرد المطلق " ولنا الويل إذا حدث ذلك فهى بشر"(١) ...لقد صارت الأمور بهذا الشكل نذيراً بالخطر، وكثيراً ما ألح عبد المتجلى على هذا المعنى :"بنت لى قصراً .أنجبت لى قمرين : منصور و مندور. أغرقتنى فى المال والنعيم. وأخضعت لإرادتنا القوى المضادة، أصبحت حاكماً بأمرها ... (٢).

إن شخصية أم صابرين القوية وجمعها للمتناقضات (الالتزام الدينى والخلقى، مساعدة الناس، بناء القوة الاقتصادية، السيطرة على الإدارة) لم تسلم من مخاطر هذه التناقضات، وكانت ضحية لها حينما تآمرت عليها " مافيا"السوق لأنها لن تخضع لإرادة زعمائها، وكانت نهايتها المأساوية الدامية، حيث قتلت فى عقر دارها وتركت أطفالها وزوجها يحصدون المرارة والأسى، لقد انهزمت " لغة السوق " فى النهاية لأنه لا يصح إلا الصحيح، ومهما كان " للبراجماتية " من أسباب ومسوغات، فإن الاستقامة خير وأبقى.

النموذج الثانى الذى يقابل " أم صابرين " مع تشابه فيما بينهما، هو شخصية "براعم " التى أطلق عليها الناس فى القرية "ملكة العنب " – على غرار ملكة الجمال – فهى فتاة قروية حصلت على الشهادة الإعدادية، ولم تكمل تعليمها، فقد تحملت عبء استمرار الأسرة بعد وفاة والدها، وقد كافحت وصارت من أمهر زراع العنب فى الفدادين التى ورثتها عن أبيها ،والفدادين التى تستأجرها من الآخرين ،وقد خضع لها احترماً وتقديراً أهل القرية : العمدة المجلس المحلى، ضابط النقطة، وهى صاحبة أفضال على الجميع وقامت بترميم المدرسة وبناء المسجد وفتحت أبواب الرزق أمام الكثيرين.

---

١ -السابق، ١٠٦.
٢ -نفسه .١١٢.

وهنا نجد المشابهة بينها وبين أم صابرين واضحة وتكاد تكون متطابقةوتضيف الرواية توصيفاً لبراعم أو ملكة العنب أنه لم يعرف عنها قط ما يشين سلوكها ، وقد حاول الكثيرون خطبتها ، ولكنها رفضت ، حتى تزوجت الشيخ محمد حسب الله ، إمام المسجد فى ختام الرواية .

الفارق بين أم صابرين وبراعم أن الأخيرة أقل خسارة فى اقتحام المشكلات وأقرب إلى الاهتمام بدائرة عملها ، وأبعد عن المشاركات الاجتماعية غير المحسوبة ولعل هذا الفارق يرجع إلى نشأتها الريفية المتوجسة الحذرة التى تضع كل اهتماماتها فى العمل والتركيز عليه (الزراعة) ، أما " أم صابرين " فهى بنت المدينة الجسور المتفتحة التى تفهم السوق وألاعيبها (التجارة) وتواجهها بالأسلوب الناجح مع.. وبالإضافة إلى ما سبق فإن" براعم "تبدو أقرب إلى الاستجابة للنصح والقبول بالمشورة (نصائح أبو المجد شاهين أثمرت لديها وانتهت بها إلى الزواج) ، أما أم صابرين فتبدو معتدة برأيها مع قدرة على الإقناع ، ثم صلابة الإرادة والتصميم على تنفيذ الفعل ، وكان ذلك من أسباب طلاقها .

إن شخصية " براعم " تبدو إيجابية فى إطار البيئة والتربية؛ بل تبدو فى بعض الأحيان معبرة عن أصالة البيئة فى النخوة والشهامة التى يتصف بها الرجال عادة فعندما اعتقلت السلطات مشيعى جنازة الشاب الذى قتله العراقيون ،لم تقف ساكنة ، ولم تخش من حالة الخوف والتوتر التى تسود القضية ، وذهبت إلى المحامية ذات النفوذ ومنحتها مبلغاً ضخماً بعد أن حصلت على وعدٍ منها بإطلاق سراح المعتقلين ، وقد كان ..

قد تظهر للقارىء ملامح غنية فنياً لشخصية أم صابرين ، أكثر من " براعم " ولعل هذا يعود إلى أن الشخصية الأولى أتيح لها أن تأخذ مساحة روائية وزمنية أكبر بكثير من

" براعم " فقد تناولها الكاتب على مدى روايتين ، بل إن إحداهما تحمل اسمها " امرأة عبد المتجلى " ، ولكن " براعم " فى كل الأحوال تبدو متناسبة مع الإطار الذى عولجت فيه .

هناك مثلاً " رمانة " أم" عبد المتجلى " وتأمل دلالة الاسم وتمثل حالة الصبر الجميل على مآسى الحياة وصدمتها ، كما تمثل أيضاً حالة الحب الغامر للأبناء ، والتبشير بانفراج الأحوال ، وانتظار الأمل القادم .

وهناك مثلاً " مِسعدة " أم محمد حسب الله "- وتأمل أيضاً دلالة الاسم – وتمثل ذلك الدأب والرغبة فى مقاومة جفاف الحياة من خلال احتفائها بجاموستها التى تعدها صديقة لها وتشتبك معها فى عراك لفظى ، وبخاصة عندما تحلبها ثم تصالحها بعدئذ ، مما يعبّر عن طيبة القلب وبساطة التفكير.

وهناك مثلاً " قطيفة " زوجة " أبو الفتوح "- وتأمل كذلك دلالة الاسم – وهى شخصية حيّة تفيض بالمشاعر والاستجابة لما يجرى لزوجها ، مع أنها فلاحة بسيطة ، ولكنها تفعل ما تستطيع من أجله ، بل تغامر ببيع قطعة الأرض التى تملكها للإفراج عنه ، فضلاً عن ذلك فهى مثال للارتباط بالقرية والأرض .

وهؤلاء النسوة يمثلن شخصية المرأة الفلاحة البسيطة ، فى وفائها وحنانها وعطائها استجابة لفطرتها الإنسانية الصافية .. على العكس من شخصية أخرى مثل "عنايات هانم البحيرى " مثلاً ، زوجة اللواء الشربجى باشاً ، فقد تركت زوجها واختفت ولم تعبأ بقيم الزواج أو تقاليد المجتمع ، ولم تضع حساباً لما يمكن أن يقال عن اختفائها أو الشائعات التى ستدور حولها .

ولعل الكاتب أراد فى هذا السياق أن يدلل أو يؤكد على أن الإنسان ابن بيئته أو تربيته ، وهو ما بدا فى القرية حيث كانت الشخصيات النسائية أكثر وفاء وانتماء لأسرهن ، من نساء المدينة .

المجموعة الثالثة (الشخصيات الشريرة):

وتمثل هذه المجموعة مايمكن أن يسمى رجال الإدارة وتشمل العمدة وشيخ الخفراء وضابط النقطة أو ضابط الأمن عموماً وممثل السلطة التنفيذية ، النائب عن الدائرة ، وهى شخصيات تتسم عادة بالاستعلاء واستغلال النفوذ وتحقيق المصالح الخاصة وعدّ الناس معادين دائماً للإرادة ، مما يترتب عليه معاملتهم بالقسوة والعنف ، وإن وقع بعض شخوص المجموعة نفسها ضحية لهذاالعنف وتلك القسوة عندما شذّ عن الإطار المسموح به من قبل الإدارة .

والعمدة شخصية لها حضور مؤثر وفعال ، بالنسبة للإدارة والناس على السواء فالإدارة تلجأ إليه لتنفيذ إرداتها ، وهو يلجأ إليها لتلبية رغباته ، والعلاقة بينهما علاقة سرّيّة فوجوده مرتبط بوجودها ،لذا فإنه لا يستطيع الانفصال عنها أو التمرد عليها إلا إذا أوتى خصائص معينة ، ويمكن أن نجد مثالاً لهذا وذاك فى عمدة " عبد المتجلى " وعمدة " ملكة العنب " .

عمدة " عبد المتجلى " اسمه الحاج " إبراهيم رضوان "وهو رمز للقمع ، وتنفيذ أوامر الإدارة بتشدد مبالغ فيه ، وقد رسمه الكاتب من الخارج ، قدم لنا أفعاله وسلوكه وأقواله ولم يقدمه لنا من الداخل ، وهو امتداد لفساد الإدارة وانحرافها وإصرارها على القمع الشامل الكامل ، ويفسر كلام " عبد المتجلى " فى المسجد حول السرقة واللصوص ، على أنه يدخل فى إطار التطرف والحركات الهدامة ! بل ينذر عبد المتجلى إنذاراً أخيراً ، ويستخدم

شيخ الخفراء فى تنفيذ إنذاراته وتهديداته ، كما يبدو العمدة شخصاً ملتوياً خبيثاً ذا ابتسامة ثعبانية حين يستغل الأحداث الجارية فى الترهيب والتخويف :

"- البلد فيه حركة اعتقالات يا عبد المتجلى .. ألم تسمع عنها يا ابنى؟" (١).

ويوظف العمدة " إبراهيم رضوان " هذا التخويف وذلك الترغيب ، فى منع الناس من الكلام من مجرد كلام فى أى قضية تعنيهم مما يفيد أن القمع مطلب سلطوى يهدف إلى تهميش المواطن وإبعاده عن مناقشة أية مشكلة ذات صلة بالدولة أو الوطن ..مجرد مناقشة .

على النقيض من عمدة " عبد المتجلى " أو كفر أبو سالم "، يأتى عمدة " ملكة العنب " أو " الربايعة " وهو الحاج " عبد الشافى وهدان " من أسرة طيبة ، يسّر الله له الحج سبع مرات ، ولديه من الأراضى الزراعية والأموال والمواشى ما يكفيه وأولاده يتولون المناصب المرموقة ، وأخوه الكبير – يرحمه الله – كان من ضباط الثورة ، وهو عادل محترم من الجميع ، ولا يتردد فى القسوة عند اللزوم كى لا يفلت الزمام ، ولكنه يتحرى الحقيقة تحت أى ظرف من الظروف ..قضى بضع سنوات فى الأزهر ، ولم يكمل الابتدائية .

عندما داهمت قوات الأمن جنازة قتيل العراق ، وقبضت على الناس ، أعلن استقالته بلا تردد، واحتج على ما فعله الضباط والجنود دون مسوغ مقبول ، وقد طلبت منه الداخلية البقاء فى منصبه حتى تستقر الأوضاع .

إن الحاج عبد الشافى ، بالنسبة لغيره نشاز ، أو استثناء من القاعدة فالرجل لديه أساس دينى تربى ضميره عليه ، وعنده أساس اقتصادى يمنعه من مدّ يده لقبول الرشوة ،

---

١ -اعترافات عبد المتجلى ، ص ١٦.

ويملك أساساً اجتماعياً يتمثل فى أسرته المعروفة وشخصيته القوية وكلها عوامل تجعله يختلف عن العمدة السابق الذى يمثل سمة عامة لأغلب العمد.

وقد تعمق الكاتب شخصية الحاج عبد الشافى ، فرأيناه ، وهو يتفاعل مع الأحداث ، ويخوض غمارها بالعقل الناضج والتفكير الصائب ، وينفعل نتيجة الظلم الذى أصاب أهل الربايعة وهم يشيعون قتيل العراق ، ثم نراه وهو يفضى بداخله إلى زوجته عما يلاقيه من عنت الإدارة والناس ، ويعلل لأسباب قراره بالاستقالة ...إلخ ..ومع ذلك فقد رأيناه لا يتورع عن استخدام القسوة عند اللزوم حتى لا تفلت الأمور ، كما سبقت الإشارة .

إن العمدة بصفة عامة يبدو فى روايات الكيلانى شخصية ذات أهمية ، لأنه عادة- باستثناء عمدة كفر الربايعة – وكيل للإدارة فى ممارسة القمع .

وتأتى شخصية " شيخ الخفراء " مكملة لشخصية العمدة ، بل هى جزء منها ومثال ذلك شخصية " عتيق " شيخ الخفراء ، الذى قام بإحراق بيت عبد المتجلى من قبل المافيا المتحكمة فى السوق ، انتقاماً من أم صابرين . وشيخ الخفراء بصفة عامة ، يعدّ يداً غليظة فى جسم العمدة تنفذ إرادته ، وتلبى أوامره ، وإذا تباطأت أو انحرفت فالويل لها ! ويبدو أن الكاتب جعل من شخصية " عتيق " رمزاً يشير إلى تسخير المافيا المتحكمة فى السوق والسياسة ، ورجال الإدارة لحمايتها ، وتنفيذ عملياتها الانتقامية ممن تغضب عليهم فى مقابل تخليها عن دورها الأصلى فى حماية الأمن القومى الداخلى .

أما شخصية الضابط ، فهى سلبية بصورة عامة ، ومرسومة من الخارج ، أى جاهزة ولا يستطيع القارىء أن يعرف ما يدور بداخلها ، مع أن هناك نماذج من الضباط تزخر بالعاطفة الإنسانية حتى لو استجابت لما يفرض عليها ، إن الصورة العامة للضابط فى الروايات الأربع تفيض بالبشاعة والقبح ، فضابط النقطة فى القرية يأخذ الرشوة من

تجار المخدرات ليتستر عليهم ، وله حق معلوم عند التجار وأصحاب الحاجات ولا تسلم تصرفاته من الظلم والفساد ، وتشتريه " أم صابرين " بالهدايا .

أما رجل الأمن ، فهو الجلاد الذى يرغم ضحيته على الاعتراف بعد التعذيب الوحشى الذى لا يقره دين ولا عرف ولا قانون ، ومواصفاته : طاعة الأوامر ، وعليه أن يكون ذا خيال واسع وقدرة على الإبداع ، شأنه فى ذلك شأن الفنان الموهوب فإذا لم تكن قضية فعليه أن يخترعها ، وإذا كانت صغيرة فواجبه أن يبرزها فى ثوب من الخطورة والإثارة والهدف من ذلك كله شغل الرأى العام بقضية لها وزن وأبعاد ، وبث الرعب فى قلوب الذين يفكرون فى المعارضة أو الانقضاض على السلطة ! (١) .

وإذا كان رجل الأمن فى الروايات رمزاً للفساد والقهر ، فإن رجل السلطة التنفيذية لا يقل إفساداً وقهراً ، وأوضح النماذج له شخصية " أحمد علام " رئيس المجلس القروى بقرية " الربايعة "فهو منحرف ، مستغل للسلطة ، يأخذ الرشوة ، لا يحل مشكلة إلا إذا تقاضى الثمن ، ثم هو بعد ذلك يجيد فن الإنشاء والتزييف والنفاق " إنّ ما يهمنا أولاً هو أمن البلد وتلاحم الحزب مع الجماهير ، وأخوف ما أخافه أن يكون وراء ما يحدث الآن تدبير خبيث من المتطرفين والإرهابيين (تعليقاً على موضوعإخراج زكاةالعنب)وقضيةالزكاةحضرات الأعضاء مسألة شخصية (!!)بحته ، وعلى كل فلاح أن يختار الفتوى التى تروق له (!!) ، ويا ويل من يعبث بأمن البلد "(٢) .

وفى الوقت الذى ينفعل فيه الحاج عبد الشافى عمدة الربايعة نتيجة لمداهمة قوات الأمن لجنازة قتيل العراق ويحتج ، فإن " أحمد علام " يؤيد إجراءات العنف التى اتخذتها الحكومة ويدعو أعضاء المجلس إلى الانتشار بين الناس ، وتجميع الأخبار عنهم أولاً

---

١ - ملكة العنب ،٥٥.
٢ - السابق ، ١٥.

بأول (جستابو)، والإبلاغ عن أى معارض للحكومة بوصفه إرهابياً يجب القضاء عليه ، كما يؤيد موقف الحكومة (المتخاذل) فى مسألة القتلى المصريين بالعراق ، والقبض على زعماء البلد ومنهم أبو المجد شاهين ومحمد حسب الله.

ويعلق على عنف السلطة ضد الناس فى الجنازة عند الاجتماع الدورى للمجلس قائلاً :

-" بلد لا تمشى إلا بضرب الحذاء .

فيرد عليه أحد الأنصار :

- صدقت ورب الكعبة "(١).

وعلى نهج شخصية أحمد علام ، تأتى شخصية النائب فى المجلس التشريعى ،وهى شخصية باحثة عن المصلحة الذاتية (لا الشعبية) ، وتستغل النيابه فى الكسب غير المشروع ، وتقدم لنا رواية " ملكة العنب " شخصية المحامية " سعاد الدباح " النائبة عن الدائرة أو عضو مجلس الشعب مثالاً جيداً ، كان أبوها أكبر جزار فى المدينة ، ويحسن التفاهم بالسكين ، قيل عنها أنها "واصلة " إلى أبعد مدى ، ولها علاقات وطيدة بالكبار ويروون عنها أنها تُدخل الطالب كلية الشرطة أو الكلية الحربية نظير عشرة آلاف جنيه ،وأنها استطاعت بنفوذها إنقاذ عدد من تجار المخدرات الذين قبض عليهم متلبسين ، لا ببراعتها فى الدفاع عن النفس ، ولكن بأساليب وحيل لا تمت إلى ذلك بصلة ، وأنها استطاعت أن تنقذ فتاة عابثة من المحاكمة بعد أن دهست بسيارتها شابين بريئين ماتا على الفور. (٢).

---

١ - نفسه ٥٣.

٢ - ملكة العنب ، ٨٦، ٨٧.

وقد لجأت إليها " براعم " لتنقذ المعتقلين وتخرجهم من السجن ، وقد فعلت بعد أن دفعت إليها مبلغاً ضخماً من المال ، وذهبت إلى القرية مع المفرج عنهم فى موكب مهيب !.

ولاشك أن هذه الشخصية الوصولية المرتشية تتسق مع الوضع العام الذى يحارب التدين والمتدينين ، ويضعهم فى خانة " التطرف والارهاب " ، وتجد هذه الشخصية وأمثالها مجالاً رحباً للنمو والانتشار فى كافة المجالات ، طالما كانت على ولائها للحكومة ..أما إذا انحرفت قيد شعرة ، فإن التنكيل يكون من نصيبها ، وهو ما حدث مع عبد السميع بك الطناحى " نائب الدائرة الذى يدعى أنه مستقل ، وقد أيده الناس كراهية فى حزب الحكومة وتصرفاته ، وضيقاً بعجز الأحزاب السياسية عن القيام بواجباتها ..فقد جاء إلى الربايعة بسيارته المرسيدس ونظارته السوداء عندما علم بما جرى فى جنازة قتيل العراق ، وعقد اجتماعاً فى المسجد ليشجب سياسة القمع واستنكار تصرفات العسكر ، وكانت النتيجة أن جرّ ضابط إلى خارج المسجد فى استهتار واحتقار ، ولم تشفع له حصانته البرلمانية ،بل كال له الصفعات والركلات ، والعسكر يفعلون مثلما يفعل ضابطهم !.

وهكذا يبدو رجال الإدارة بصفة عامة ، فى صورة غير طيبة بل شريرة فى أحيان كثيرة ، تسعى إلى تحقيق مصالحها الخاصة على حساب القيم والأخلاق والناس ، ولعل الكاتب أراد بتقديمها مسطحة أو من الخارج ، أن يقول لنا إنها نماذج سائدة ومنتشرة بكثرة ، بحيث لا تحتاج إلى استبطان أو حفر داخلى .

المجموعة الرابعة (شخصيات ثانوية)

وتضم هذه المجموعة عدداً من الشخصيات الثانوية التى لعبت دوراً مهماً فى توضيح الأحداث ، وكان وجودها ضرورياً فى بناء الروايات مع قصر دورها أو تواضعه ذلك

أنها أثرت فى الأحداث ومجرياتها ، وألقت بأضوائها الكاشفة بصورة أخرى على الشخصيات الرئيسية (١).

وأبرز الشخصيات الثانوية شخصية الحاج " يونس عبده " وهو عامل التليفون فى دوار العمدة ، وهو غريب مثير يجمع بين الصلاح والطلاح ، والصدق والكذب ، والوفاء والخيانة .إنه شخصية متناقضة تجمع الأضداد ، ويسميه بعض الناس فى القرية إبليس ، والبعض الآخر يرى أنه داهية وذكى .. فهو من ناحية أخرى . كما تردد الشائعات– يشتغل مرشداً أو مخبراً للمباحث ، ويتقاضى على ذلك أجراً إضافياً ، وهو على استعداد لأن يشى بأى إنسان حتى لو كان من أعز أصدقائه ، ويعزى إلى يونس تلك الهجمات البوليسية على أوكار السوق السوداء والحشاشين وحائزى السلاح ، بل قيل أيضاً : إنه أرسل شكوى من مجهول يدعى فيها أن العمدة له حصة من التموين يأخذها ظلماً وعدواناً من أقوات الساكين ..مع أن العمدة من أبناء عمومته !.

والحادثة المؤكدة أنه خدع " قطيفة " زوج " أبو الفتوح الشرقاوى " ، واستغل لهفتها من أجل إخراج زوجها من السجن ، وجعلها تبيع أرضها دون أن تقبض ثمنها ، زعماً أن ثمن الأرض يذهب إلى المحامى الكبير الذى وكله للدفاع عن " أبو الفتوح "!.

وكان "يونس عبده" من الأذكياء الذين يعرفون كيف يشغلون الناس ، ويسربون الشائعات ليحقق أغراضه الخاصة أو يشغل الناس بعيداً عنه وقد أعلن مثلاً رأيه من الحادثة التى اتهم فيها أبو الفتوح الشرقاوى فقال :" يبدو أن الجريمة وراءها رؤافع

١ - انظر : فن القصة ، ٤٦.

سياسية "[1]، وكانت نتيجة هذا الرأى أن ثار اللغويّن المثقفون من أبناء القرية خاصة وسماسرة الانتخابات والأحزاب السياسية ...

وهكذا تبدو شخصية " يونس عبده " مثيرة وحية ومحركة للأحداث فى الرواية حتى انتهى بها المطاف إلى السجن ..بيد أن الكاتب لم يقدم لنا تعليلاً أو تفسيراً لتناقض شخصية " يونس عبده " وترك لنا التخمين والحدس .. فهل كانت معرفته المحدودة بالقراءة والكتابة ، ثم طموحه للغنى والثراء ، والتطلع إلى أعلى ، ورغبته أن يكون محط أنظار الجميع ومثار اهتمامهم بحكم أنه حلقة الوصل بين الإدارة والعمدة أو مكمن الأسرار بينهما من وراء تناقضاته؟ الإجابة ممكنة ، ولكننا كنا نطمح أن تكون من خلال الرواية .

ومن الشخصيات الثانوية الحية فى الروايات ، شخصية " الراعى كشكل " فى رواية " ملكة العنب "وهو حشاش مخضرم ، يعلق على الأحداث بمفهوم الحشاشين ، ويطلق التخدير عقال لسانه فيقول كلاماً شبيهاً بالحكم الممتزجة بالسخرية ، ويستطيع أن يختزل أعقد القضايا التى تشغل المجتمع فى عبارات قصيرة أو جمل مكثفة تثير الابتسام ، وتذكر بالقهر فى آن واحد . ولعلنا نستطيع أن نستشف شيئاً من ذلك فى الحوار التالى فى إحدى الجلسات التى شهدها الراعى كشكل :

".. قال أحد المساطيل للراعى كشكل :

- إذن فأنت قتلت السلامونى ، أو على الأقل تعرف من قتله ..

قال الراعى وهو ينحى النرجيلة بعيداً

- بالتأكيد أعرف ..

---

١ - قضية أبو الفتوح الشرقاوى ، ٢٩.

صوبوا إليه عيونهم وقالوا فى صوت واحد :

- من!
- الشيخ محمد حسب الله
- مستحيل .
- ولم لا ؟ إنه يطبق شرع الله ..
- وهل يقتل من يسرق بضعة كيلو جرامات من العنب ؟.....
- لا تسألونى ..اسألوا الشيخ ...وبالنسبة لى فأنا أؤيد تحديد النسل ..وإلا قطعت عنا أمريكا المعونات ....." (١).

ويستدعى الكاتب شخصية الحشاش كشكل لتكشف عن جوانب سلبية فى أجهزة الأمن والنظام الحكومى ، حيث يستجيب لما يُطلب منه من جانب الضابط المحقق ،وهو فى هذه الإستجابة يقول لنا بطريقة غير مباشرة : إن الظلم الذى تمارسه السلطة لا مرد له ، وإنه لا قبل للناس بمواجهته ، وإنه من الأولى الاعترَف – كذباً بالطبع – أن الحكومة دائماً على حق ، وإن تلفيق القضايا والتهم للأبرياء حق! إنه فى كل الأحوال يدين السلطة بطريقة معكوسة حتى لو بدت هذه الطريقة نوعاً من الهزل ، كما حدث عند التحقيق معه .

وإذا كان التحشيش يظهر الراعى كشكل فى حالة من عدم المبالاة الساخرة ، فإن الكاتب صنع له جوانب مأساوية كى تكتمل صورته الحية ، فنراه يعشق زوجة "مصطفى السلامونى "الثالثة، يتآمر معها لقتله ، وينتهى به المطاف إلى المحكمة والسجن !.

---

١ - ملكة العنب ، ٢١.

لقد استدعى الكاتب مجموعة من الحشاشين فى رواية " اعترافات عبدالمتجلى " ، وقد أطلعنا على لغتهم وأفكارهم ، وهى لا تختلف كثيراً عن لغة الراعى كشكل وأفكار، فلماذا الالحاح على استحضار الحشاشين فى أكثر من رواية ؟ هل يريد الكاتب أن يخبرنا أن فريقاً من الشعب ينسحب إلى عالم المخدرات ليغيب عن المعاناة والعذاب والضيق والآلام التى تغشى حياة المجتمع ؟ أم يريد أن يُجرى على ألسنة الحشاشين السلبيات التى تعشش فى أركان الوطن من خلال جو ساخر ؟أم يريد القول : إن الغياب عن الوعى والفساد الاجتماعى صنوان مقترنان ؟لعله يريد هذا كله ، ولكنه من وجهة نظرى أراد أن يثرى حيوية النص الروائى بتلك النماذج التى تخلط الجد بالهزل ، والسخرية بالابتسام ، وتقول ما لا يقوله العقلاء ..

ولعله يلحق بهذه الطائفة من شخصيات الحشاشين الأفاقين ، وإن كانت غير واضحة الوضوح الفنى الكافى وإن كانت تشكل فى حد ذاتها معلماً مهماً فى السياق الروائى ، ولعل شخصية " عوض العوضى " فى " ملكة العنب " مثال على ذلك ..ويمكن أن نجد له مقابلاً فى بعض روايات نجيب الكيلانى الأخرى ، ولعله يتماثل فى سلوكه مع شخصية نمطية فى الرواية العربية ، وتمتد جذورها إلى ماقبل عقود ، لعلها تبدأ بشخصية " حمادة الأصفر " فى رواية " أنا الشعب التى" كتبها " محمد فريد أبو حديد ". ولكن يلاحظ أن شخصية الأفاق عند نجيب الكيلانى تملك فطرة خيرّة مع ما يشوب صورتها الخارجية من مظاهر شريرة وكأنه يريد أن يقول : إنها لم تجنح إلى الشر بطبيعتها ، ولكن الواقع والظروف من وراء ذلك .

بيد أن هناك شخصيات شريرة بطبيعتها مناظرة لشخصية الأفاق ، محترفة للشّر ومغموسة فيه ، وهنا شخصية قدمها الكاتب فى رواية " امرأة عبد المتجلى " تمثل هذا

النمط تمثيلاً جيداً ، وهى شخصية " الوردانى ربيع " من " كفر الصقور " وهو سمسار أراض ، وتاجر مخدرات ومواشٍ ، ومن رجال السياسة المحليين [1].ويستأجر من قبل المافيا التى تحكم السوق للقيام بالعلميات القذرة ، وقد أغوى شيخ الخفراء " عتيق " لإحراق بيت " عبد المتجلى " نظير ألف جنيه .

إن الشخصيات الثانوية تلعب دوراً مهماً فى الغالب لكشف جوانب مبهمة من الشخصيات الرئيسية أو الأحداث ، وكثير منها لا يمكن الاستغناء عنه أو حذفه ، لأنه يتمتع بالصدق والحيوية القصصية .

وبصفة عامة يمكن القول إن الكاتب أعطى لشخوصه لمسة الحياة الفنية ، سواء كانت شخوصاً رئيسية أو ثانوية ...وسواء كانت نامية *round* تتكشف تدريجياً وتتطور بتطور الحوادث أو مسطحة *flat* تحمل فكرة واحدة أوصفة لا تتغير على مدى الرواية .

ولأنها شخصيات إنسانية حيّة ، فقد حملت بذور الفطرة الإنسانية فى حالات توهجها البشرى وانطفائها الطبيعى ..لذا رأينا شخصيات خيرة تضعف أحياناً أو يصيبها الضعف والوهن أمام قسوة الواقع والظروف ، وشخصيات غير خيرة ، تتحول إلى شخصيات خيرة ، وتبعث ما فى داخلها من فطرة سوية لتلحق بركب الأخيار ..أما الذين فسدت ضمائرهم ، وماتت قلوبهم ، فإنهم يظلون على منهجهم حتى يلحقهم الطوفان .

لاشك أن خبرة نجيب الكيلانى أو عمره الطويل فى الكتابة الروائية ، كان من وراء تلك الشخصيات التى استوت ناضجة فى الغالب من خلال واقعيته الإسلامية .

---

١ - ملكة العنب ٣١.